مقاييس الشوارع واتجاهاتها بمدينة مكناس المغربية*

في عهد المولى إسماعيل العلوي

1083-1139هـ/ 1672-1726م

اعداد باحث الدكتوراة بجامعة أرجياس

خالد عبدالكريم محمد إمام

تعددت العوامل التي أثرت على المقاييس العامة لسعة الشوارع بمكناس الإسماعيلية فمنها ما هو متصل في الأصل بنظام تخطيط المدينة، ومنها ما هو مرتبط بالموقع والمناخ، وطريقة الارتفاق، هذا بالإضافة إلى الفقه المعماري الإسلامي، وقوة السلطان في هدم شارع أو بناء وفتح أو إنشاء آخر بصورة قد تغير من اتجاه الشارع أو تجعل له أهمية وظيفية لم تكن له من قبل.

وقد حرص المولى إسماعيل على إقطاع القبائل العربية والفئات من عبيد بخارى عند تخطيطه لمدينته مكناس، بما يحقق مبدأ التمايز وذلك لحديث الرسول-صلى الله عليه وسلم-: "**احجروا، واقطعوا، وأحيوا، ولا تحجروا فوق ثلاث**"، **فالأحجار**، هو وضع المخطط العام للمدينة وتحديد أبعادها ومقاييس شوارعها الرئيسية حسب قواعد الفقه الإسلامي[1]، والتطبيق العملي لفعل الصحابة "رضوان الله عليهم" لهذه الأحاديث عند فتح البلدان وتمصير الأمصار[2]، وأما **الإقطاع**،

---

* فصلة من رسالة الماجستير الخاصة بي تحت إشراف كل من أ.د. حمزة عبد العزيز بدر أستاذ الآثار الإسلامية بكلية الآداب – جامعة سوهاج، ود. محمد حسام الدين إسماعيل عبدالفتاح أستاذ مساعد الآثار الإسلامية بقسم الآثار – شعبة الآثار الإسلامية- كلية الآداب – جامعة عين شمس.

[1] جميل عبد القادر أكبر، عمارة الأرض فى الإسلام مقارنة الشريعة بأنظمة العمران الوضعية، ط٣، مؤسسة رسالة للنشر، بيروت، ١٩٩٨م، ص٦٠،٦١.

[2] محمود عبد الرحمن عبد المنعم، معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، دار الفضيلة للتوزيع والنشر، القاهرة، ١٩٩٩م،ج٣،ص٢٤٨-٢٥٠؛ محمد السيد الوكيل، عناية الإسلام بتخطيط المدن وعمارتها، دار الأنصار، القاهرة، ١٩٨١، ص١١٣،١١٤.

فهو إعطاء القبائل والفئات أخطاطاً لهم إما على أساس عصبية القبيلة أو على أساس نوع الجنس كخط عبيد بخارى للجند السودان من غرب أفريقيا، وخط الفتيا للأسرى الأسبان، وخط الأندلسيين لأهل الأندلس، ويتميز الإقطاع بتحديد أبعاد الخط ومساحته، على أن يترك تخطيط الخط داخلياً لأهله حسب **القاعدة الحديثية : "لا ضرر، ولا ضرار"**[١]، **"وأنتم أعلم بأمر دنياكم"**[٢]، فهذه الأحاديث كانت الأساس الذي أنشئت عليه قاعدة المصالح المرسلة، التي صارت عليها تخطيطات الخطط في مكناس، ويقصد بها "المصالح التي لم يوجد بها نص صريح بالكتاب ولا السنة ولا فعل السلف الصالح، فلا يقبله أو يرفضه الشرع، إلا بما يحقق المصلحة العامة للمجتمع"، لذا أُكمل الحديث بعبارة "**ولا تحجروا فوق ثلاث**" أي لا تتركوا أرضاً فراغاً تملكونها دون استخدام، وهناك من بحاجة إليها، لذا حدد الحديث مدة الترك لهذه الأرض ثلاث سنوات، وبعدها ينزعها القاضي ويعطيها لمن بحاجتها، على أن يعوض مالكها بثمنها المقدر من قبل المحتسب.

وكانت تفصل الخطط بعضها عن بعض طرق واسعة تفتح عليها أبواب الحارات بالدروب، فهذا الطريق عامل فصل وربط في الوقت نفسه، ويهدف هذا التمايز بين القبائل إلى تحقيق الوحدة العضوية لفئات المجتمع بما ينقلهم من عصبية القبيلة إلى الاندماج في الوحدة الترابطية في المجتمع الحضري من المدينة لا كجزء متمايز ولكن كجزء عضوي.

ونتيجة لما سبق تميزت تخطيطات الشوارع الثانوية التي تفصل بين مساكنها بما يتمايز وحاجة الارتفاق، مما نتج عنه تخطيط نوعين من الشوارع داخل مكناس، **الأول، ما أطلق عليه الفقهاء الطريق السابلة أو طريق المسلمين أو طريق العامة،** وتعني هذه النوعية أنها ملك

---

[١] أخرجه أحمد، وابن ماجة، وعبد الرازق، والطبراني، عن ابن عباس "رضي الله عنهما"، وأخرجه ابن ماجة أيضا من حديث عبادة بن الصامت"رضي الله عنه"، انظر إرواء الغليل، حديث رقم (٨٩٦)، وصحيح الجامع، حديث رقم (٧٥١٧)، وكشف الخفا، حديث رقم (٣٠٧٤) أخرجه ابن ماجه في كتاب الأحكام- باب من بنى في حقه ما يضر جاره (٢٣٤٠)، وقال البوصيري في «الزوائد» (٧٨٤/٢): «في حديث عبادة بن الصامت هذا إسناد رجاله ثقات إلا أنه منقطع. لأن إسحاق بن الوليد، قال الترمذي وابن عدي: لم يدرك عبادة بن الصامت. وقال البخاري: لم يلق عبادة»، وله طُرق أخرى يتقوى بها، والله أعلم، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه».

[٢] أخرجه مسلم عن أنس وأم المؤمنين عائشة "رضي الله عنهم"، صحيح الجامع، حديث رقم (١٤٨٨) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل- باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا، دون ما ذكره من معايش الدنيا على سبيل الرأي (٢٣٦٣)، من حديث أنس بن مالك، من حديث عائشة رضي الله عنهما.

لعامة المسلمين ولهم جميعاً حق الانتفاع بها، وعلى السلطة المحافظة عليها من أي اعتداء يعيق المرور بها[1]. أنظر (اللوحتان ١، ٢).



(لوحة ١) لوحة حكومية تشير لاسم درب باب بين لقباب بين قصر المحنشة والمدرسة الملكى وفيصل قبة السفراء، تصوير الباحث.



(لوحة٢) يظهر فيها المساحة الخالية من البناء بمحاذاة الأسوار الإسماعيلية بدرب بين لقباب لتسهيل الدفاع عن المدينة، تصوير الباحث.

---

[1] محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، ط١، عالم المعرفة عدد ١٢٨، الكويت، ١٩٨٨م، ص١٧٩،١٨٠.

لذلك ذهب الحنفية وعلى رأسهم الإمام أبي حنيفة النعمان: " **إن الطريق إذا تعدى عليه بالأبنية التي تعيق المارة من الحوانيت والبيوت البارزة وغيرها مما يعيق المارة، ولا يكفل حق امتلاك الطريق لعامة المسلمين، أزيل ذلك بما يضمن مصالح المسلمين**"، وذهب الإمام أبى حامد المقدسي الشافعي في مجمل تعليقه على مذهب أبي حنيفة: " **إذا اقتصر الهدم على ما تسمى في مذهب الحنفية، ولم يتطرق الهدم إلى ما لا يستحق شرعاً جاز، أما إذا تطرق إلى هدم ما لا يستحق الهدم لمجرد التشهي، وهو الأنفس ليضئ المكان أو يتسع عن القدر الجائز فلا شك أن فعل هذا حرام شرعاً، ولا يجوز لأحد الإعانة عليه لما في ذلك من إضرار لمصالح المسلمين، خاصة إذا خص الهدم أوقاف الضعفاء من الأيتام والفقراء والمحتاجين وقطع أرزاقهم، إلا أن يستبدلوا بما يحفظ معاشهم)**[١]، **وهذا ما يوافق رأى الإمام مالك بن أنس: (من أنه لابد على صاحب السلطان أن يقدر شوارع وطرق المدينة حتى لا تضيق بأهلها لأنها جزء من عمران المدينة)**[٢].

ولهذا قام المولى إسماعيل بمعاوضة أرض "بصيلة" الواقعة خارج باب المشاوريين المندرس حالياً، وهي من أملاك حبس المساكين، بالفدان السقي المشهور "بتعطميت" ببني زياد، بالعدوة القصوى من سيدي علي منصور من أملاك المولى إسماعيل العلوي[٣].

وتم عقد المعاوضة بين المولى إسماعيل العلوي وبيت المال في مكناس وذلك بشراء أرض وقف لبيت المال لتأدية المبلغ المطلوب، ولقد قامت هذه المعاوضة بين كاتب المولى إسماعيل

---

[١] المقدسى، أبى حامد المقدسى الشافعى، ت. سنة٨٨٨هـ/١٤٨٣م، الفوائد النفيسة الباهرة فى بيان حكم شوارع القاهرة فى مذاهب الأئمة الأربعة الزاهرة، تحقيق آمال العمرى، هيئة الآثار المصرية، القاهرة، ١٩٨٨م، ص٢٦،٢٧.

[٢] إيمان محمد عيد عطية، القرآن والعمارة المضمون الإسلامى فى الفكر المعمارى "نحو نظرية فى العمارة الإسلامية"، رسالة دكتوراة، قسم الهندسة المعمارية، كلية الهندسة، جامعة القاهرة، ١٩٩٣م، ص٩٠،٩١.

[٣] رقية بلمقدم، أوقاف مكناس فى عهد مولاى إسماعيل، جزءان، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المغرب، مكناس، ١٩٩٣م، ج١، ص٢٤٦،٢٤٧.

العلوي "محمد بن قاسم الحضرمي"، وناظر حبس المساكين"عبد الوهاب العرائشي" في رمضان ١١٠٢هـ/١٦٩١م، وهدف المولى إسماعيل من ذلك إلى المحافظة على أملاك الضعفاء[١].

وقد نتج من هذه المعاوضات تغير بعض اتجاهات الشوارع، بما يضمن المصلحة العامة للمسلمين، ويحفظ أمن الطريق من اعتداء ذوي السلطان والعامة.

وأطلق على هذه النوعية من الطرق اسم **الشوارع النافذة،** تمييزاً لها عن الطرق الخاصة **غير النافذة** وهي **النوعية الثانية** من هذه الشوارع، والتي يترك فيها حرية التخطيط بها لأصحاب الإقطاعات، لأنها مشتركة الملكية، لأصحاب الدور المحيطة بها، وذلك لقصر حرية الانتفاع بالطريق على تلك الفئة دون غيرها من طبقات المجتمع[٢]، مثل شوارع أخطاط عرب الشابانات والعرب الأخلاط و الفتيا والأندلسيين وعبيد بخارى و خط الرياض العنبري.

وتميزت مكناس الإسماعيلية في عرض الشارع الأعظم المنصور بأنه بلغ ٦٠ ذراعاً أي ٣٠ متراً، بينما عرض الشوارع الجانبية ٢٠ ذراعاً أي ١٠ أمتار، وجعلوا عرض كل زقاق ٧أذرع أي, ٣,٣ متر[٣]، وذلك لالتزامهم **بحديث الرسول– صلى الله عليه وسلم–: "إذا تدرأ القوم في الطريق فليجعل سبعة أذرع"**[٤]**، رواه بشير بن كعب عن أبى هريرة**[٥]. أنظر (شكل١).

[١] رقية بلمقدم، أوقاف مكناس، ج١، ص٢٤٧.

[٢] محمد عبد الستار، المدينة الإسلامية، ص١٨١.

[٣]Colin, G., " La noria marocaine", Hesperis XIV (١٩٣٢), pp.٢٢،٢٣.

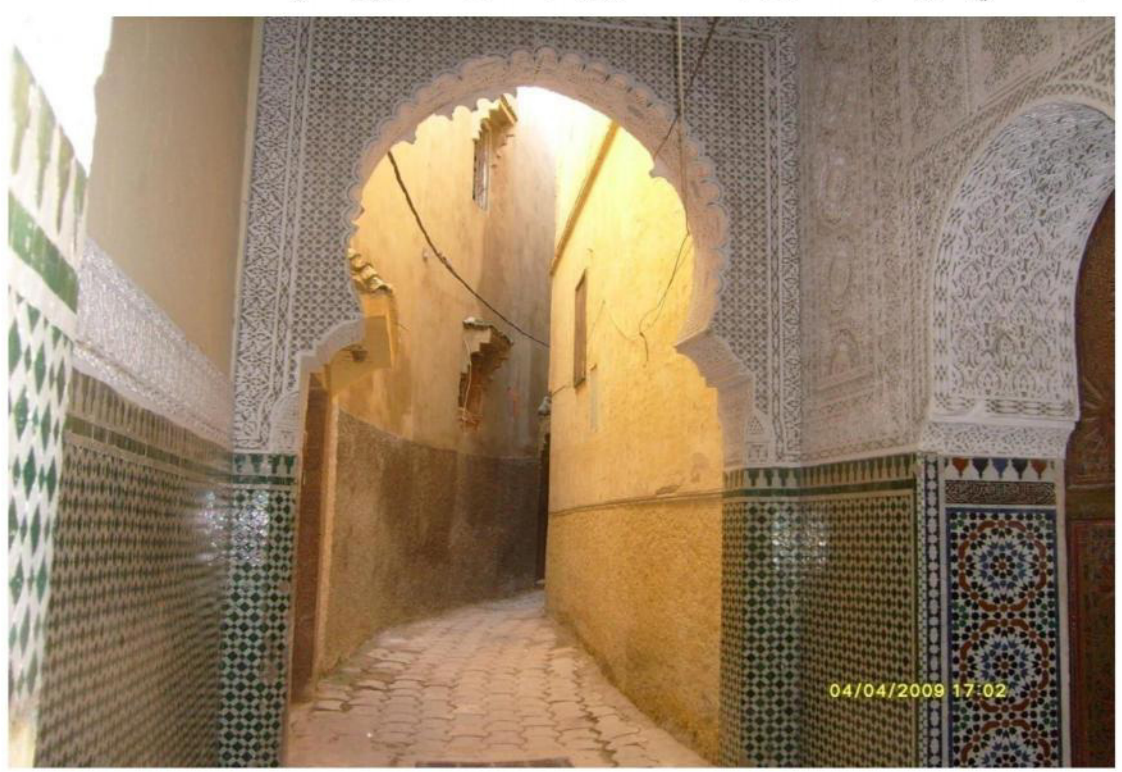
[٤] أخرجه البخاري في كتاب المظالم والضب– باب إذا اختلفوا في الطريق الميتاء وهي الرحبة، تكون بين الطريق، ثم يريد أهلها البنيان فترك منها الطريق سبعة أذرع (٢/٨٧٤/٢٣٤١)، ومسلم في كتاب المساقاة– باب قدر الطريق إذا اختلفوا فيه (٥/٥٩/٤٢٢٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[٥] صالح بن على الهذلول، المدينة العربية الإسلامية أثر التشريع فى تكوين البيئة العمرانية، دار السهن، الرياض، ١٩٩٤م، ص٨٠.



(شكل١) خريطة مكناس الإسماعيلية ويظهر فيها اتجاهات الشوارع والدروب والأسوار والأبواب والقلاع والمناطق الزراعية والغابات والمراعى، نقلا عن مفتشية المباني التاريخية والتراثية بمكناس.

بينما تميزت الطرق غير النافذة بأنها "زائغة" أي منحرفة أو مائلة عن الطريق النافذة، وهو ما أكسبها صفة الالتواء، وترتبط هذه السمات ارتباطاً وثيقاً بظروف تخطيطها في الأصل، وبما يحدث من تغيرات في التكوينات المعمارية بها، مما يؤدي إلى فتح طرق ومسالك جديدة وتتفرع من هذه الطرق فتستدق، ويتكرر التوائها[1] مثل درب "العلمي والرحبة والمزوار والفتيا والصاباط والستينة وتبربارين وفيلالة"، مما نتج عنه جعل هذه الشبكة من الطرق بكل خطة منفصلة عن غيرها، وغير مرتبطة بشبكة الطرق الموجودة بالخطط الأخرى، مما نتج عنه عدم التشابه في الاتجاهات الداخلية لحركة الشوارع، مما يساعد على الخصوصية وتحقيق الوظيفة الدفاعية بالتخطيط المدني عبر شبكة الطرق بأخطاط الدروب بمكناس. أنظر (لوحة٣).



(لوحة٣) يظهر بها ضريح ودرب العلمى، تصوير الباحث.

فمن المعلوم أن الحركة في المدينة والمبنى لا تنتهي فالمبنى جزء من كل، بسبب ما يحيط به من شوارع وحارات وأزقة، خاصة إذا كان للمبنى ملحقات وامتداد في الجهة الأخرى من الشارع، كالسلالم الخارجية، للمباني التي ترتفع عن مستوى الشارع وتأخذ الوضع الجانبي أيًا كان شكل السلم، مزدوجاً أو مفرداً أو مجنحاً[2]، مثال جامع للالة عودة وجامع المولى إدريس الأول

---

[1] محمد عبد الستار، المدينة الإسلامية، ص١٨٤.

[2] المقدسي، الفوائد النفيسة، ص٣، مقدمة آمال العمري.

كذلك يراعى في عناصر الاتصال بالمبنى وملحقاته أن تكون مرتفعة لا تعوق الطريق مثل الساباط الذي يوجد أعلى الأبنية ويربط بين الأسطح، فارتفاعه واتساعه كبير كي لا يعيق المارة، ويبلغ أعلى ارتفاع للساباط ٦ أمتار، وهو مطابق لأحكام الفقه المعماري مما يمنع حدوث أي ازدحام بالطرق.

وتتكسر الواجهات الرئيسية والفرعية للمحافظة على الطرق المحيطة بها، بصورة لا تتعب عين المارة، بل تكون وسط تنظيم وتخطيط محكم يساعد المرء وهو يسير في الطريق على التدبر من خلال ألوان الواجهات والطريق، والتي تختلف من درب إلى آخر.

مما يؤدى إلى اختلاف سمك الجدار المطل على الشارع للمنشآت عامة والدينية خاصة مع تشكيل مساحة منتظمة للمنشأة من الداخل تناسب تنظيم تخطيط المدينة[١].

وقد أثرت في تحديد مواضع الطرق الخاصة اعتبارات عديدة منها ما هو متصل بطبيعة الموقع والمناخ وحركة الشمس واتجاه الريح، ومنها ما هو مرتبط بظروف المساحة، التي تؤثر في طريقة التقسيم واتجاه الشوارع فيها، ومنها ما هو مرتبط بظروف المتجاورات السكنية والطرق الأخرى، وكان لاختلاف هذه الاعتبارات بالإضافة إلى الرغبة في توفير نوع من الخصوصية للبيوت المشتركة في هذا الطريق أو ذاك أثره على اتجاه هذه الطرق الخاصة[٢].

وهذه هي السمة التي تميز الطرق غير النافذة الداخلية في مكناس حيث أنها طرق ملتوية، وتصديقاً لقوله تعالى:

" ....ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم"[٣].

فمع حركة الشمس الظاهرة من الشرق إلى الغرب نتيجة التخطيط في توجه الشوارع بمكناس لاعتبارها تقع في المناخ الحار من الشمال إلى الجنوب، لأن ذلك يساعد على عدم تعرض

---

[١] الثقفي، الحيطان، تحقيق محمود خير رمضان يوسف، دار الفكر المعاصر، بيروت، ٢٠٠٢م، ص١٤٦؛ محمد عبد الستار، المدينة الإسلامية، ص١٩١.

[٢] إيمان محمد عيد عطية، القرآن والعمارة المضمون الإسلامي في الفكر المعماري "نحو نظرية في العمارة الإسلامية"، رسالة دكتوراه غير منشورة، قسم الهندسة المعمارية، كلية الهندسة، جامعة القاهرة، ١٩٩٣م، ص ١٤٥.

[٣] سورة الحجرات، من آية (١٢).

الطرق وواجهات البيوت المطلة عليها فترة طويلة للشمس مما يؤدي إلى استقبال رياح الشمال المخفضة للحرارة، وذلك عند تكرار توازي الطرق الخاصة لتوازى الواجهات المطلة عليها مما يؤدى إلى الرغبة في اتساع الطريق، وذلك من خلال الاستفادة من المساحات المتروكة من الجانبين[١]، مثل الفيصل الإسماعيلي الذي تمتد به الحوانيت الإسماعيلية في المساحة الباقية من خط الرياض العنبري أمام ضريح الولي عبد الرحمن المجذوب بجامع الرخام.

ومما سبق يتبين لنا أن الأرض المخصصة للإنشاءات عليها سواء المنازل أو للقصور تتأثر بالقياسات التي تحتم تقسيم المساحة تقسيماً معيناً يمكن استغلالها، بالصورة التي تحقق وظيفتها في عدم الاعتداء على الطريق والمحافظة على حقه سواء من الناحية الوظيفية أو من الناحية الجمالية.

ومن ثم تتحدد اتجاهات الطرق الخاصة و ومقاييسها بمكناس وفق طبيعة المساحة، وتتعارض لذلك اتجاهات التقسيم في الملكيات المتجاورة، فتأخذ الطرق الخاصة اتجاهات مختلفة تتوازى وتتعامد، وتتصل وتنفصل، مما يجعل هذه الطرق غير نافذة وملتوية مثل درب الستينة و فيلالة والعلمي والرحبة والفتيا.

وترجع التغيرات في أغلب هذه الأسس التي أثرت على قياسات واتجاهات الشوارع والطرق إلى تغير الأوضاع السياسية في مكناس وذلك بعد تحويلها إلى عاصمة للدولة العلوية في عهد المولى إسماعيل، مما نتج عنه تحولات جذرية في عمران المدينة.

لذا تأثرت قياسات واتجاهات الشوارع والطرق في مكناس بالتغيرات التقليدية الممثلة فيما يحدث من حالات المواريث أو البيع أو الاستبدال أو تحويل وظائف المباني إلى وظائف أخرى غير التي أنشئت من أجلها، أو تغيير وظيفتها وإعادة بنائها لتؤدي هذه الوظيفة مثل هدم المولى إسماعيل للقلعة المرينية بمكناس العتيقة وإنشائه ساحة الهديم مكانها[٢].

وذلك لفقد القلعة المرينية مكانتها في هذا المكان بعد إنشاء القصبة الإسماعيلية بقلاعها وأسوارها وأبوابها في الشمال من القلعة المرينية، كذلك لحاجة المولى إسماعيل إلى مكان القلعة

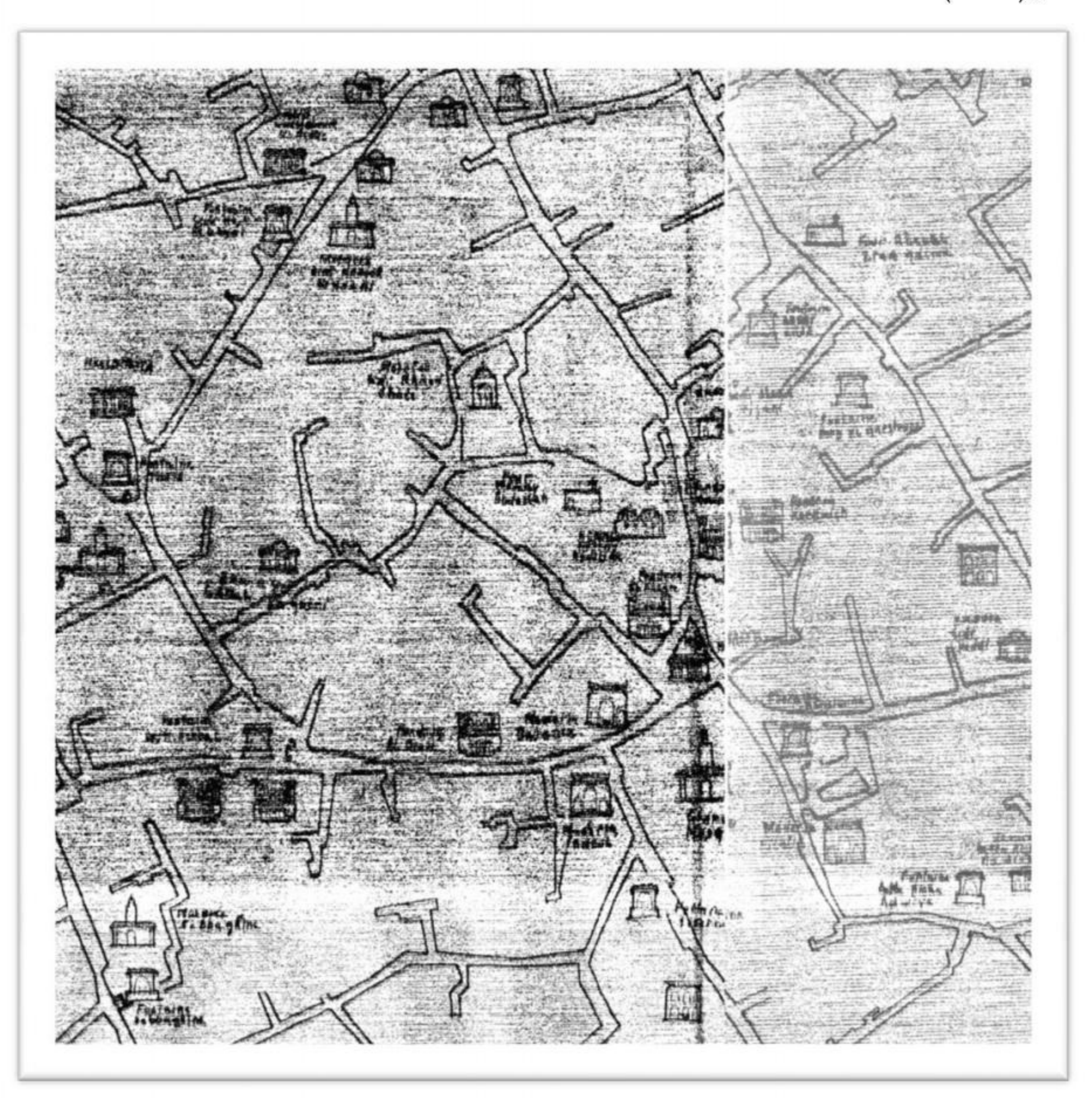
---

[١] محمد عبد الستار، المدينة الإسلامية، ص١٨٥.

[٢] جمال حميرية، مكناس من التأسيس إلى مطلع العصر الحديث دراسة في التاريخ السياسي والعمراني، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ٢٠٠٦م، ص٢٥٣،٢٥٤.

ليجعله ملتقى الطرق المتقاطعة بين مكناس الإسماعيلية والعتيقة ولمرور الشارع الأعظم أمام باب المنصور العلج بهذا المكان.

ومن هنا وجهت شوارع مكناس الرئيسية الكبيرة من الشمال إلى الجنوب حتى تكون عمودية على حركة الشمس الظاهرة، وهذا ما يجعل الشوارع تكتسب ظلالاً طوال النهار بالإضافة على اكتسابها الرياح الشمالية التي تساعد على استمرار برودتها أطول فترة ممكنة مما يؤدي إلى نسبة التظليل العالية في هذه الشوارع مثل شارع بين لقباب، وشارع صهريج السواني، ... وغيرها. أنظر (شكل٢).



(شكل٢) تفصيل من (شكل١) يظهر فيها أثر التخطيط الشبكي على مكناس الإسماعيلية بين ضيق واتساع الشوارع والطرق وأثر ذلك على سعة الاتجاه العمراني في خط المحنشة.

كما أن اتساع الشوارع النسبية في مدن أوربا في العصور الوسطى كان لتحقيق نسبة أفضل من الإضاءة في هذه البلاد التي تنخفض فيها نسبة سطوع الشمس إلى حد كبير بالمقارنة بالمدن الإسلامية عامة، ومكناس خاصة التي تقع في المنطقة الحارة[1].

[1] محمد عبد الستار، المدينة الإسلامية، ص١٨٦.